الفصل

2

سن الرشد في ساموا

حلَّت ميد في ساموا الأمريكية في الواحد والثلاثين من شهر أغسطس لعام 1925. ووجدت في ساموا مكاناً مضيافاً. وقد كانت عبارة عن مجموعة جزر يبلغ عددها أربع عشرة جزيرة موجودة في المحيط الهادئ. كانت الولايات المتحدة قد استولت على سبع من هذه الجزر عام 1901 وهذا ما جعل الأسطول الأمريكي يزورها بينما كانت ميد هناك. نزلت في البداية ضيفة عند الأدميرال مما جعلها تتمتع بمكانة اجتماعية عند سكان ساموا الذين كانوا يعلمون أنها تكتب كتاباً فأبدوا رغبة بمساعدتها.

لم تكن ساموا بدائية جداً كما كانت تأمل فقد نشطت هناك البعثات التبشيرية المرسلة من قبل جمعيات مستقلة منذ أكثر من مئة سنة. وكانت هذه البعثات التبشيرية تدير

ميد تلعب مع بانكيا وبوبال وتشوكال في جزيرة بيري وهي واحدة من جزر مانوس في غانا الجديدة وذلك عام 1928. كانت هذه رحلتها الميدانية الثانية.

مدرسة في كل قرية. فرأت ميد أن الناس يرتدون الآن ملابس قطنية أكثر من اللباس التقليدي المصنوع من لحاء الشجر إلا أن التغير في النواحي الأخرى كان قليلاً. لم يكن السامويون يتكلمون الإنجليزية وكانوا يعيشون في منازل مصممة على شكل خلايا نحل بأرضيات من الكسارة المرجانية، وستائر محاكة مرفوعة معظم الوقت. واعتمد اقتصادهم على الصيد والزراعة البسيطة وكانوا مكتفين ذاتياً إلى حد بعيد.

مكثت ميد في باجو باجو عاصمة ساموا الأمريكية لمدة ستة أسابيع بينما عكفت على دراسة اللغة الساموية برفقه ممرضة ساموية. أما عن طعامها، فقد كانت تتناول وجباتها بمفردها في فندق صغير حيث كانت النزيلة الوحيدة فيه. وقد كان الطباخ يعد لها أطعمة محلية مثل البابايا والباناناز والتارو وهي عبارة عن نشويات غير حرّة، وكان يثني محاولاتها بالتحدث بالساموية. بعد ذلك، انتقلت إلى قرية مجاورة تدعى فايتوجي حيث قضت عشرة أيام في ضيافة الزعيم المحلي للقرية الذي عاملها وأهل بيته كشخصية كبيرة. نامت عندهم على سرير مصنوع من عشرين حصيرة محاكة بعناية تعلوها بطانية وشرشف. وقدموا لها في هذا المنزل وجبات شهية من الدجاج، وأصناف خاصة من السمك والفاكهة مع الشاي والقهوة والخبز الذي كانوا يحضرونه من قرية مجاورة. كما علّموا ميد كذلك اللغة الساموية الراقية وهي لغة خاصة يتكلمون بها مع الناس من ذوي المناصب الرفيعة.

كما علموها كيفية التصرف كشخصية كبيرة بما في ذلك الأساليب المتكلفة في تقديم الهدايا. اشتمل هذا السلوك الرفيع على الانحناء أمام شخص جالس من مستوى أعلى في المجتمع. وجدت ميد أن الملكية الساموية فيها إطراء وجمال ولكنها كانت صعبة ومنعزلة جداً عن عامة الشعب الذين جاءت لتدرسهم، وتجري أبحاثها عليهم.

في شهر نوفمبر، انتقلت إلى جزيرة تاو التي تبعد مئة ميل شرقاً من باجوباجو. اختارت ميد هذه الجزيرة النائية لأنها كانت إحدى الجزر القليلة في ساموا التي يوجد فيها قرى يسكنها عدد كاف من المراهقين لتدرسهم، كما أنها كانت مناسبة لأنها معزولة وبعيدة عن التأثير الأمريكي. ميزة أخرى لجزيرة تاو هي وجود موظف البحرية الأمريكية إدوارد آرهولت الذي يدير المستوصف الطبي على الجزيرة. وكان بإمكان ميد أن تعيش مع عائلته. فهي لا تستطيع أن تسكن مع عائلة ساموية لأنها حينئذ ستضطر إلى أن تتشارك مع خمسة أو ستة أشخاص غرفة دون جدران وسترى المواشي والدجاج يتجولون ويركضون هنا وهناك، ولن تجد مكاناً تجلس عليه غير الأرض.

أما مع عائلة هولت، فإنها لن تعاني كثيراً من الوحدة، وسيكون بإمكانها تناول طعام أمريكي فقد كتبت مرة للأستاذ بواز قائلة: «أستطيع تناول الطعام لكني لا أستطيع أن أعيش عليه ستة شهور لأنه نشوي جداً». كانت تاو جزيرة بعيدة، بيد أن باخرة حكومية كانت تتوقف فيها كل ثلاثة أسابيع مما يمكنها من الحصول على البريد والإمدادات.

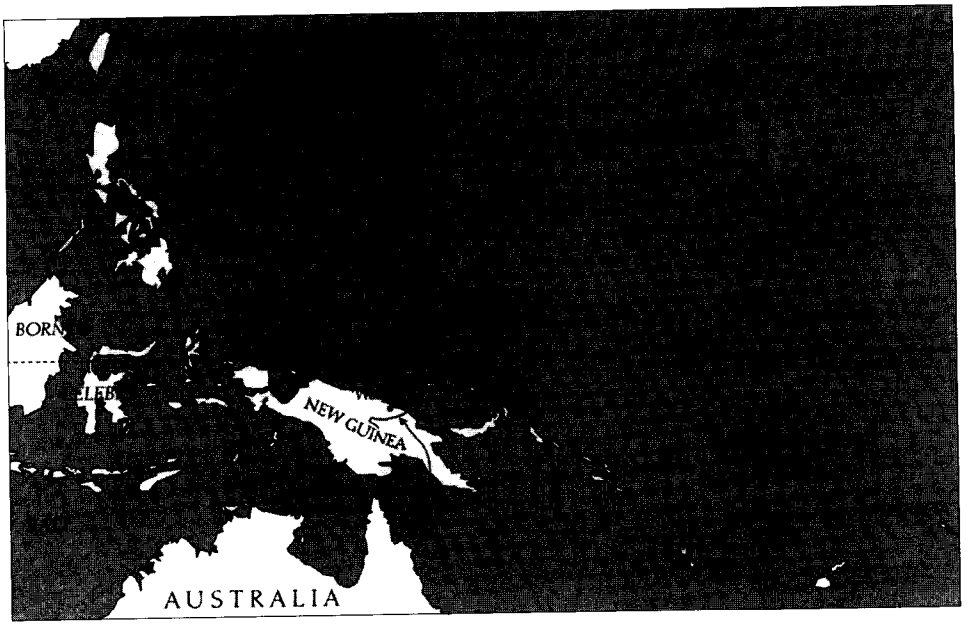

قامت ميد برحلة ميدانية عبر المحيط الهادئ الجنوبي. فقد ذهبت في بادئ الأمر إلى ساموا ثم إلى مانوس في جزر الأميرالية ثم إلى مواقع عدة في غينيا الجديدة ومن ثم إلى بالي.

كانت جزيرة تاو تمتد على مسافة 8 أميال عرضاً و11 ميلاً طولاً. وكانت الجزر الثلاث بما فيها الجزيرة التي تسكن فيها عائلة هولت مجتمعة في نصف ميل، بينما كانت الجزيرة الرابعة تبعد ثمانية أميال ويمكن الوصول إليها بالزوارق فقط أو عبر ممر وعرٍ وشاقٍ وكان عدد سكان الجزيرة حوالي 1000 نسمة.

أعطتها عائلة هولت نصف الشرفة الخلفية للمستوصف لتكون غرفة لها وقد فصلتها عن باقي الشرفة بستار من الخيزران الرّخو الذي أخذ الأطفال المحليون يختلسون النظر عبره متجمعين على الشرفة ليشاهدوا نشاطاتها ويتناقشوا فيما بينهم عن أغراضها، بينما جاء ساموبون آخرون فضوليون لزيارتها. عند المساء، كانت ميد ترفع ستارة الخيزران وتضع الكرسي والطاولة جانباً ليبدأ

غرفة ميد في الشرفة الخلفية للمستوصف في قرية تاو في ساموا. كان المستوصف واحداً من الذين صمدوا في وجه الإعصار الذي ضرب تاو في يوم عيد نيويورك عام 1926.

المراهقون الساموييون بالرقص على أنغام القيثارة والغيتار وسط تعليقات المتفرجين. وقد انبهر الساموييون بالصور التي كانت تعلقها على جدران غرفتها خاصة صورة الأستاذ بواز بنظرته الحادة.

كانت كل قرية في جزيرة تاو تضم بين 30 إلى 40 منزلاً. كان بعضهم يضم أباً وأماً وأطفالهم فقط وكان بعضهم الآخر يضم مجموعات تتألف من 15 أو 20 فرداً كلهم أقرباء عميد أو عميدة العائلة.

غرفة ميد في الشرفة الخلفية للمستوصف في قرية تاو في ساموا. كان المستوصف الوحيد الذي صمد من الإعصار الذي ضرب تاو في يوم عيد نيويورك عام 1926.

قررت ميد أن تجري دراسة مكثفة على خمسين فتاة أعمارهن بين العاشرة والعشرين. وقد ساعدها شبابها وصغر حجمها أن تتعامل بسهولة مع الفتيات المراهقات اللواتي جاءت لدراستهن. كانت ميد صغيرة الحجم حيث كانت بطول خمسة أقدام وبوصتين، ووزنها 98 باوند.

وسرعان ما أدركت أنها لن يكون بوسعها دراسة المراهقة في ساموا ما لم تتعرف أكثر على دورة حياة العائلة بأكملها. وهذا ما دفعها إلى مراقبة الأطفال الرضع والفتيات الصغار والنساء الناضجات. كما سجلت المراسم والعادات التي يقومون بها عند الولادة والزواج، ودوّنت بدقة المكانة الاجتماعية للفتيات الصغيرات في المجتمع، ورمز الأخلاق الذي يحكم سلوكهن.

كانت الفتيات العازبات ذوات السمعة الحسنة يخرجن دائماً بصحبة نساء أكبر منهن. وبما أن سكان ساموا لم يكونوا يعلمون أن ميد متزوجة فقد رأوا أن من الضروري أن تكون هي الأخرى بصحبة امرأة. أرسل المشرف المحلي فيلوفيانيا وهي واحدة من الفتيات لتكون مرافقة لميد. كانت تأتي كل صباح من غير إبطاء عند الثامنة وتجلس مع ميد لمدة ثلاث ساعات تتبعان تواريخ العائلات والعلاقات في كل بيت في القرية. ينتهي العمل الصباحي عند الحادية عشرة وعند الظهيرة يحين وقت

الغداء الذي يتبعه سكون يخيم على القرية عدة ساعات ليرتاح جميع السكان. وفترة الراحة هذه هي حاجة ملحة في الجو الحار لتاو. في الساعة الخامسة، يحين وقت العشاء ومن ثم تعمل ميد غالباً على تدوين ملاحظاتها حتى منتصف الليل، إلا عندما تكون هناك حفلة رسمية في شرفتها. كلما كانت تزداد معرفتها وتتحسن قدرتها على التحدث بالساموية، كلما كانت تجري مقابلات مطولة مع الساموييين من الفتيات الصغار والكبار. لم يكونوا يقبلون أن تدفع لهم ميد مقابل هذه اللقاءات فقد كانت تعطيهم بدلاً عن ذلك هدايا مثل الأوراق والظروف البريدية، والكبريت والبصل والإبر والخيوط، أو المقص أو خدمات تؤديها لهم بما في ذلك طلب أشياء يحتاجونها من الهونولولو، وطباعة الرسائل المهمة والتقاط الصور. في النتيجة، أصبحت معرفتها باللغة الساموية جيدة بما فيه الكفاية لتمكنها من مقابلة مجموعات من الناس. كانت تفضل شكل الجماعات لأنها وجدت بأنها تحصل على أفضل وأكثر المعلومات عندما يبدؤون الجدال ومعارضة بعضهم بعضاً.

في يوم ذكرى نيويورك، عام 1926، أعدت عائلة هولت كعكة فاكهة وقد عرضت ميد عليهم أن تضع الصلصة الجامدة لها. وبينما كانوا منهمكين بالترتيب للعشاء، بدأت العاصفة إلا أنهم لم يعيروها اهتماماً كبيراً. وفجأة، ضرب الإعصار وأصبح الهواء محملاً بالرمال وجوز الهند والأسقف الصفيحية. لقد راقبوا بفزع كيف

تنهار المباني من حولهم الواحد تلو الآخر. انهار المستشفى أولاً، ثم المدرسة، في الناحية الأخرى من القرية. كان منزل آل هولت محمياً بتلة مرتفعة بيد أنهم عرفوا أن لحظة الهدوء في مركز العاصفة ستتبعها رياح متجهة إليهم مباشرة من البحر المفتوح. فما عساهم يفعلون؟ قرروا أن يفرغوا خزان المياه الإسمنتي الموجود في الباحة الخلفية للمنزل من الماء ليتخذوه ملجأ لهم من العاصفة. نزلت ميد أولاً في الخزان وقد غمرت رجليها عدة بوصات من الماء ثم ناولها السيد هولت الطفل آرثر الذي يبلغ عامين. تسلق بعد ذلك إلى داخل الخزان السيد

أخذت ميد هذه الصورة لامرأة مع طفلها خلال زيارتها لساموا بين عامي 1925 ـ 1926. وجدت ميد أنه يتوجب عليها دراسة دورة حياة المرأة بالكامل في ساموا لتتمكن من فهم الفتيات الصغيرات.

أحضرت ميد معها من ساموا ثلاثة أشياء فقط من بينها المشط الخشبي. لكنها جمعت لاحقاً أشياء لعرضها في المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي.

والسيدة هولت ثم محمرة كان جيران ساموين قد أرسلوها للعائلة. وهكذا قضوا بقية العاصفة داخل هذا الخزان بمساحته التي تبلغ أربع بخمس أقدام، وسقفه المصنوع من الصفيح؛ والذي كان يرشح ماءاً. اضطرت ميد أن تتوقف عن العمل للأسبوعين التاليين، حتى يعيد القرويون بناء منازلهم المتهدمة.

عرفت ميد أن الأطفال الرضع تحضنهم أمهاتهم لسنتين أو ثلاث ثم ينتقلوا بعد ذلك إلى عهدة أخواتهم الأكبر سناً ليقمن بدور الرعاية الأساسية للأطفال تاركين الأمهات يذهبن للعمل في الزراعة وصيد الأسماك والحياكة. عندما يصل اثنان من رجال البحرية حاملين معهم صناديق ليقفوا عليها، وبعض الملابس الجافة وكشافي إضاءة، ودجاجة سن البلوغ، فإنها تتحرر من أعباء رعاية الأطفال المتعبة في أغلب الأحيان لتبدأ فترة حياتها الأجمل والأكثر حرية والخالية من الهموم.

كان يفترض بالفتاة في ساموا أن تتعلم الكثير من المهارات المنزلية بكل تفاصيلها مثل حياكة الملابس والزراعة وصيد الأسماك. ولكن لم تكن تلك الفتيات الصغيرات في عجلة من أمرهن لتعلم هذه الأشياء، فهناك متسع من الوقت لبلوغ سن الزواج. كان العامل الرئيس في إنهاء أي نزاع قد ينشب بين الفتاة وأمها هو

بساطة موقفيهما. إذا حدث أي توتر بين الفتاة وأمها، فإن الفتاة كانت تنتقل ببساطة لتعيش لبعض الوقت مع عائلة أخرى. كتبت ميد عن ذلك الموضوع قائلة: «بعض الأطفال يعيشون بشكل مستمر في منزل واحد، ولكنهم يجربون بعض أماكن الإقامة الأخرى الممكنة بذريعة الزيارات».

سبب آخر للانعدام الظاهري للصراع بين الوالدين والأطفال هو الانفتاح في موضوع الزواج، فقد كان الأطفال يشهدون في كثير من الأحيان حفلات الزواج وكانت عندهم ساعات فرح. وعلى الرغم من الاعتقاد الرسمي أنه ينبغي على الفتاة أن تكون رزينة حتى الزواج، إلا أن كثيراً من الفتيات كانت عندهن حالات فوضى.

استجوبت ميد الفتيات بشكل مفصّل حول هذه الحالات وسجلت عادات تبدأ من علاقات الصداقة الرسمية إلى اللقاءات غير المفضلة و«رغبة الفتيات للزواج»، بعد عدة سنوات، تحدى أحد نقاد ميد أن يكون وصفها بـ «العادي والمألوف» موجودا في ساموا. ورأى أن الفتيات قد ألّفن قصصاً من نسج الخيال ليرضوا ميد ويمتعوا أنفسهم.

شعرت ميد أنها محظوظة جداً في ساموا، فمنذ زيارتها الأولى إلى فايتوجي، كانت لها مكانة ملكية تمكنت من استغلالها متى شاءت. كما أنها أفسحت لها

المجال لتتعرف على كبار الحكماء والشخصيات في القرى البعيدة. في الوقت نفسه عوملت كفرد من العامة في جزيرتها الأم تاو وكانت تتجول بحرية. وهكذا، اعتقدت ميد أنها امتلكت جواز العبور لكل طبقات المجتمع الساموي.

قبيل انتهاء إقامتها في ساموا، جمعت ميد خلاصة عملها لتتأكد من أنها حصلت على كل المواد التي أرادتها. وقد كانت راضية عن الكميات الكبيرة من المعلومات التي جمعتها واعتقدت أنها ستتمكن من أن تكتب كتاباً معقولاً. قررت ميد أن تجد شريكاً لها عندما تذهب مرة أخرى لأي عمل ميداني، ولم تعد تحب أن تبقى وحيدة مرة أخرى أبداً، فقد كانت وحيدة في ساموا وقد افتقدت صداقتها الحميمة والتحفيز العقلي من أصدقائها في نيويورك؛ لذلك رأت أنه لا بد لها من شريك للحصول على اكتشافات أكثر في مجال علم الإنسان.

بعد تسعة أشهر في ساموا، غادرت ميد إلى وطنها. في القسم الأول من رحلة العودة من باجوباجو إلى أستراليا، أبحرت سفينتها في جو عاصف رهيب. وعندما وصلت إلى استراليا، علمت أن كثيرا من السفن قد غرقت فيما عرف بواحدة من أسوأ العواصف التي شهدها القرن. وفي القسم الثاني من الرحلة ظهرت أزمة من نوع ثان. على متن السفينة المتجهة من استراليا قابلت ميد ريو

فورتيون عالم النفس النيوزيلاندي الوسيم ذا القامة الطويلة. كان قد كتب كتاباً عن الأحلام وفي طريقه للدراسة في إنجلترا. أمل ميد، فقد كانت تواقة للحديث في المجالات التي تعشقها وهما علم الإنسان وعلم النفس. وقد انبهرت بقراءات فورتيون الواسعة وراحا يتكلمان دون توقف تقريباً لستة أسابيع وكانا لا يزالان يتكلمان عندما رست السفينة في مرسيليا بفرنسا. هناك كان كريسمان ينتظر زوجته مستغرباً بطؤها في النزول من السفينة. عاد كريسمان وميد إلى نيويورك، لكنها طلبت منه الطلاق بعد ستة أشهر من عودتها لتتزوج من فورتيون. في نيويورك، عينت ميد في الموقع الذي كان ينتظرها كأمين مساعد لعلم الأعراق البشرية في المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي. وكانت وظيفتها تقضي أن تبذل قصارى جهدها لتجعل علم الأعراق البشرية أو علم الإنسان الثقافي علماً شائعاً ومعروفاً بين عامة الشعب كما أصبح عليه الحال مع علم الآثار بعد اكتشاف قبر توت غنج آمون في مصر عام 1926. انتقلت ميد إلى مكتب صغير في برج المتحف وقد كتبت لاحقاً تقول: «بعد عدة أشهر قررت أنني سوف أمضي كل حياتي في المتحف»، وهذا ما فعلته حقاً. فقد كاد ذلك المكتب أن يصبح منزلها الدائم ومركز حياتها للخمسين سنة التالية. امتد مكتبها بشكل تدريجي ليشمل غرفاً مجاورة، إلا أنها لم تكن لتترك برجها لمكاتب أكثر رقياً في الطوابق السفلية. ففي البرج، كانت تستطيع أن تفعل ما تريده

لوحدها. وعندما استقر عملها في المتحف، قامت بكتابة بحثها عن ساموا، وأعطت نسخة مما خطته بيدها إلى بواز قلقة ومتسائلة كيف سيكون رأيه به. وهل فعلت ما ينبغي لها أن تفعله، أم أنها «خانته» كما فعل طلابه الذين كان يسيطر عليهم الخوف من احتمال فشلهم في القيام بالعمل على أفضل وجه ممكن. وعلى مأدبةٍ جمعتهما في جامعة كولومبيا التفت إليها قائلاً: «بالنسبة إلى ما كتبته، تعالي إلى الغداء معي يوم الثلاثاء القادم». أحبطت هذه اللهجة المتثاقلة ميد وأخذت تتساءل عن الخطأ الذي ارتكبته وهل فشل عملها فشلاً كاملاً. في صباح الثلاثاء، راحت تجوب مكتبها الصغيرة قلقةً بخصوص الغداء المرتقب فلم تكن تستطيع التفكير بأي شيء آخر. جاءت الساعة المرتقبة، وجاء بواز مصطحباً معه بندكت وجلس الثلاثة يتحدثون حول شتّى المواضيع حتى نظر بواز إلى ميد أخيراً وقال لها بحدة: «لم تفرقي بشكل واضح بين الحب الرومانسي والحب الشهواني». وقد كان ذلك هو الانتقاد الوحيد الذي وجهه لبحث ميد. في مقدمته لكتابها، وصف عملها بأنه «صورة واضحة وشفافة لأفراحٍ وأتراح الشباب الناشئ في ثقافة مختلفة تماماً عن ثقافتنا». نشر وليام مورو كتاب ميد «سن الرشد في ساموا» عام 1928 متواقتاً مع أحد الانفجارات المتكررة في الرأي العام الأمريكي حول حالة القلق لدى شباب الأمة. أضافت ميد فصلين آخرين استجابة لإلحاح الناشر توضح فيهما كيف يمكن للأمريكيين الاستفادة من الساموين، ولماذا تمر

تشكل فترة المراهقة عندهم عبوراً هادئا إلى مرحلة الشباب، بينما هي فترة توتر لدى الشباب الأمريكي. رأت ميد أن الانفتاح العام في المجتمع الساموي ومرونة البيوت الساموية، والانفتاح حول موضوع الجنس، وتكامل واستمرارية الأعمال التي تؤديها اليافعة؛ والمهمات التي ستقوم بها عندما تصبح بالغة؛ كل ذلك ساعد على جعل فترة المراهقة عند الفتاة الساموية فترة هادئة. أما في الولايات المتحدة، فالعائلات صغيرة ومنغلقة على نفسها، وقلقة من موضوع الزواج كما أن عدم استمرار فترة اللعب في الطفولة بسبب المدرسة والأعمال المنزلية اليومية التي تشغل الأم تركت الفتيات الصغيرات غير واثقات من اختياراتهن في الحياة. وعلى عكس الساموييين، رأت ميد أن الشباب الأمريكي يفتقد النمط الواضح لمراحل النمو المتوقعة عند الانتقال من الطفولة إلى المراهقة إلى سن الرشد. بدلاً من ذلك، فهم يواجهون تنوعاً كبيراً من الخيارات المحيرة، والتي تدفعهم في أغلب الأحيان إلى التمرد على الخيارات التي اتخذها والدهم.

اعتادت ميد على تدوين ملاحظاتها بشكل سريع وغير واضح، حتى دون النظر إلى الورقة أثناء الكتابة. وبعد قيامها بنسخ الصفحة من دفتر ملاحظاتها، فإنها تقوم بشطبها وترقيمها.

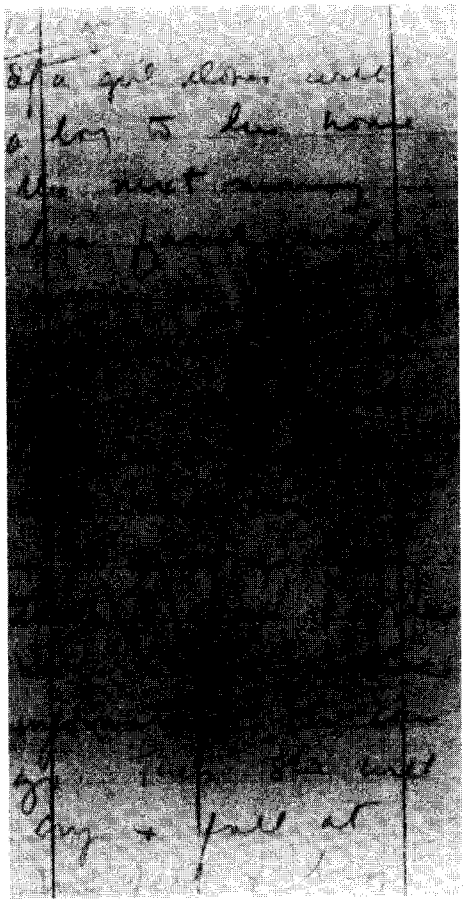

ضربت ميد مثالاً على ذلك أن الفتاة الأمريكية تجد والدها متزمتاً بينما يكون

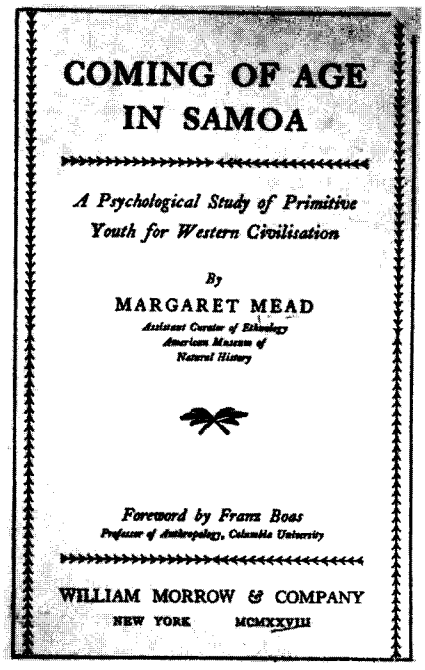

إصدار كتاب «سن الرشد في ساموا» جعل ميد مشهورة. ولم تقترح ميد في كتابها أن يحاول الأمريكيون تقليد الساموييين. بل، بدلاً من ذلك كتبت أنه يجب على الأمريكيين أن يحترموا غيرهم ويفكروا لأنفسهم.

جدها هادئاً وأمها لاعنفية مهتمة بالفلسفة الهندية، وعمتها من جماعة (اللاأدري) المتشككة في معرفة أي شيء عن الحياة. بينما أخوها أنجلو مهتم بأشياء العصور الوسطى، وعمها مهندس ومادي بحت. كل هذه الخيارات ستكون لدى المراهقة متمثلة في عائلتها والكثير من الآخرين من أساتذتها وأصدقائها. فما الذي يمكن أن يجعل مرحلة المراهقة أقل توتراً للآباء والأبناء على حد سواء؟ أشارت ميد إلى أن الأمريكيين يعيشون في مجتمع معقد ومتناقض ومتغير بشكل سريع. إن وجود خيارات كثيرة في كل جزئية من جزئيات الحياة هو أمر من الصعب تغييره. بدلاً من ذلك، اقترحت ميد أن يتعلم الأطفال الأمريكيون كيفية الاختيار.

اقترحت أنه يجب أن يتعلموا كيف يفكرون لا بماذا يفكرون، وأن يتعلموا التسامح، وأن يحثهم المجتمع على أن يكونوا منفتحين . كتبت ميد في نهاية كتابها: «ساموا تعرف طريقة واحدة للحياة هي التي تعلمها لأطفالها». «هل ينبغي علينا نحن الذين لدينا المعرفة عن طرق عديدة للحياة، أن نترك لأطفالنا الحرية في الاختيار بين هذه الطرق؟» وقد اقترحت أن البديل لذلك سيكون صراعا مستمرا طالما أن الوالدين يصران على طرقهما القديمة، بينما يضطر الأبناء لتجريب طرق جديدة.

بعد أن انتهت من كتابها عن ساموا، بدأت تخطط لعملها الميداني القادم. فأحبت أن تذهب إلى غينيا الجديدة حيث كان يعمل ريو فورتيون. هذه المرة، أرادت أن تقوم بدراسة الأطفال الصغار. فقد لفت انتباهها أن فرويد وكبار علماء النفس الأوروبيين الآخرين مثل لوسيان ليفي بروهل وجين بياجيت قد قالوا إن أساليب تفكير البدائيين والأطفال متشابهة. فكرت ميد أنه إذا كانت الحال كذلك، فكيف هو وضع أطفال البدائيين؟ في خريف عام 1928 غادرت معها منحة صغيرة من القسم في المتحف عبر سان فرانسيسكو، وهونولولو إلى جزر الأدميرالية في جنوب الهادئ.

وقابلت في طريقها فورتيون في أوكلاند بنيوزيلاندة حيث تزوجا في الثامن من اكتوبر قبل الإبحار إلى سيدني في استراليا. هناك، قدم فورتيون زوجته بفخر إلى أصدقائه وأستاذه إي.آر.راد كليف براون وكان هو من اقترح جزيرة مانوس في جزر الأدميرالية الواقعة إلى جنوب خط الاستواء لتكون ميدان عملها. في طريقهما إلى مانوس، توقفا في جزيرة بريطانيا الجديدة ليستأجرا مترجماً فورياً لهما، وقد اختارا بانيالو الشاب الذي حثهما على الذهاب إلى قريته. وبهذه الطريقة شبه الإجبارية اختارا جزيرة بيري التي كان تعداد سكانها يبلغ 210 نسمة والتي سترجع إليها ميد لمرات عديدة في حياتها. عندما وصلت إلى بيري ذكّرتها بمدينة فينيسيا البدائية؛ حيث كانت المنازل مبنية على دعائم مرتفعة فوق الماء، وكانت

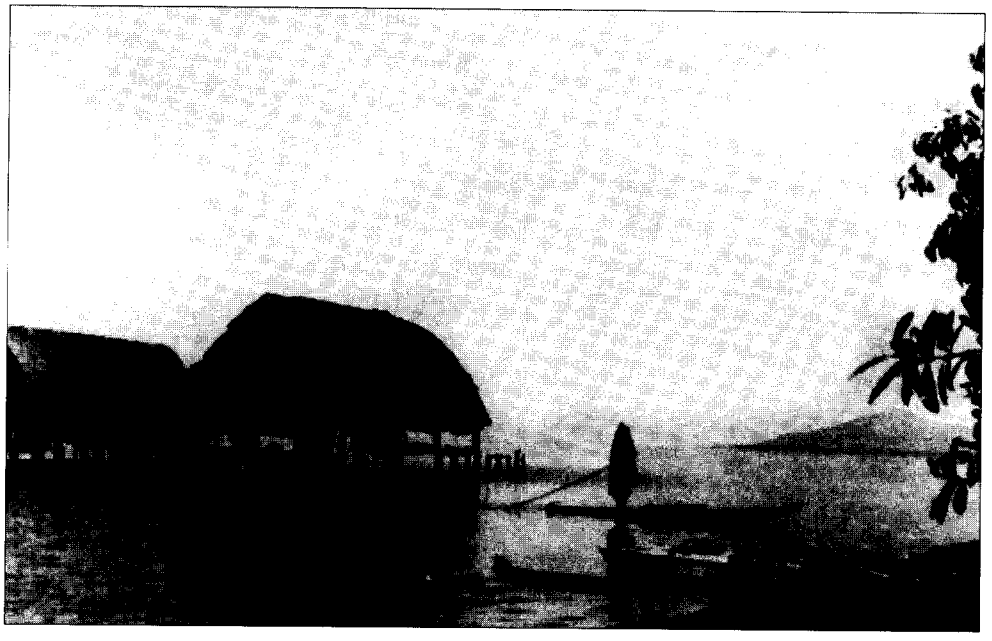

كانت المنازل في مانوس تُبنى على ركائز فوق الماء. بعد الحرب العالمية الثانية، استبدل سكان مانوس منازلهم هذه بمنازل على الأرض اليابسة. كما أنهم هجروا الكثير من عاداتهم القديمة.

الشوارع عبارة عن طرق مائية يتجول الناس فيها مستخدمين الزوارق الطويلة بينما يلعب الأطفال داخل وخارج المياه طوال اليوم.

كان لدى الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ثلاث وأربع سنوات زوارقهم الخاصة بهم، التي كانوا يربطونها بركائز بطول عشرة أقدام. حتى المواشي في بيري كانت حيوانات مائية. ففي خلال النهار كانت توضع في حظائر مبنية على دعائم في الماء، لكن كان يسمح لها أن تتمرغ وتسبح في المياه الضحلة. وكانت المنازل قريبة جداً من بعضها بعضاً حتى يتمكن الناس من التواصل بالنداء. كان منزل ميد فورتيون عند طرف جزيرة صغيرة، فيه شجرتان، وكان في واحد من المركزين الاجتماعيين في الجزيرة. ثم أقنعت ميد أحد كبار المسؤولين في الجزيرة

أن يبني لهما منزلاً آخر في المركز الاجتماعي الآخر للجزيرة. وبذلك يتمكنان من مراقبة الأنشطة في كلا المكانين. كانت أرضيات المنزل مصنوعة من ألواح خشبية، إلا أنها كانت موضوعة بشكل غير متناسق؛ لذلك كانت هناك فتحات؛ مما تسبب في سقوط أرجل الكراسي، وأقلام الرصاص، والأشياء الصغيرة الأخرى خلال هذه الفتحات إلى الماء، إلى أن تعلمت ميد أن تكون حذرة باستمرار. كانت ميد تشعر كما لو أنها تعيش على شجرة فوق الماء. استأجرا لأعمال المنزل عدداً من الصبية الصغار الذين تتراوح أعمارهم بين (12 و14) سنة. كان هؤلاء الصبية غير متدربين على الأعمال، وكانوا مشاغبين وغير أكفياء. إلا أنهما كانا مضطرين لذلك؛ لأنهما إذا استأجرا صبية أكبر سناً، فإن الفتيات الصغيرات اللواتي أرادت ميد دراستهن لن يأتين إليها أبداً. ففي مانوس، كان محرماً أي اتصال اجتماعي بين الفتيات الصغيرات وأقاربهن الأكبر منهن سناً. وفي القرى الصغيرة، كان كل السكان أقارب بشكل أو بآخر. وكان أهل مانوس يعيشون على التجارة وصيد الأسماك. في البداية، بدوا مرحين وطيبي القلب، ولكن سرعان ما أدركت ميد أن ثقافتهم مادية ومحكومة بقوانين. فبينما كانوا في السابق يصبون كل طاقتهم وعنفهم على أعدائهم في الحروب، فهم الآن قد حولوها للنشاطات الاقتصادية والتبادلات المعقدة. فكل حدث أو علاقة كانوا يصفونها بمقياس من أعطى أو من يجب أن يعطي من. بينما كان

الشبان الصغار مثقلون بالديون للرجال الأكبر سناً الذين يشترون لهم زوجات مقابل أن يقضوا سنوات في العمل للإيفاء بالديون. مما نتج عنه شعور هؤلاء الشبان بالعدوانية تجاه زوجاتهم اللواتي كلفنهم هذا العناء. من ناحية أخرى، رأت ميد أن مانوس كانت حديقة رائعة للأطفال في حين أنها لم تكن كذلك للكبار. كان الناس يعيشون في حالة خوف من الأشباح وهي أرواح أجدادهم المتوفين والتي تعاقب على الأفعال السيئة بما في ذلك الزنا المؤدى بالمرض والموت. قرر فورتيون أن يدرس الحياة الاجتماعية في مانوس، بينما تدرس ميد تفكير الأطفال. كان متاع ميد يشتمل على ألف صفحة من ورق الرسم وبالونات وكرات مطاطية وكميات كبيرة من الرز والتبغ. فكانت تهدي الرز والتبغ بينما تستخدم أوراق الرسم للامتحانات النفسية للأطفال. جمعت ميد خلال خمسة أشهر في مانوس آلاف الرسومات مدوّنٌ عليها اسم الطفل وتاريخ الرسم، وتفسير الطفل لرسوماته على كل رسمة. أرادت أن تتوصل إلى معرفة ما إذا كان تفكير الأطفال في مانوس غير عقلاني وفقاً للمقاييس الغربية، وهل إذا كانوا حقاً يعتقدون في (الأرواحية) وهو الاعتقاد بوجود الأشباح أو الأرواح التي تعيش في الطبيعة وتسكن الأشجار والجبال وأشياء معينة مثل جمجمة أو أداة؟ راقبت ميد الأطفال وهم يرسمون لترى إذا كانوا يرسمون أرواحاً أو أشباحاً، أو إذا ذكروا ذلك في توضيح رسوماتهم، فوجدت أنهم لم يفعلوا ذلك. فمن بين ألف

لوحة جمعتها ميد من الأطفال، لم تكن هناك رسمة لمنزل واحد مع وجه أو قارب يتحول إلى شخص. استنتجت ميد أن الأطفال كانوا أقل إيماناً بالأرواح من الكبار وأكثر ميلاً ليكونوا عقلانيين في تفكيرهم من الكبار. وهو ما رأته ميد مناقضاً تماماً للمجتمع الغربي، وأن التفكير اللاعقلاني والإيمان بالأرواح لا يمكن أن يعتبر مرحلة عالمية يمر بها كل طفل قبل أن يكبر؛ كما كان يرى بعض علماء النفس.

كان الأطفال في مانوس كريمين وسعداء ومتعاونين، وكان يسمح لهم فعل ما يشاءون إلا أن لعبهم الدائم كان يبدو أنه بلا جدوى. استنتجت ميد استنتاجان بعيدا المدى من خلال تجربتها في مراقبة الأطفال، وهذان الاستنتاجان يناقضان ما كان يقوله المعلمون الحاليون في الولايات المتحدة. في كتابها «النمو في غينيا الجديدة» كتبت ميد أنه من الخطأ الاعتقاد أن «كل الأطفال مبدعون بالطبيعة أو أنهم ذوو خيال خصب بالوراثة، وأنهم يحتاجون أن يمنحوا الحرية ليطوروا طرقاً غنية ورائعة للحياة بأنفسهم». اقترحت أن الأطفال يحتاجون إلى التوجيه والقوانين والقواعد من الكبار. ودلّت على ذلك أن الأطفال في مانوس كرماء ومتعاونون يكبرون ليصبحوا ماديين وغيورين وطماعين مثل ذويهم. وهذا ما جعلها تتساءل عن صحة الفكرة المتداولة بين المعلّمين التقدميين في الولايات المتحدة وفي أماكن أخرى؛ إن تغيير التعليم يمكن أن يغير المجتمع، بينما رأت أن أساليب السلوك

كانت ميد تُحمل في مانوس من قبل القرويين بعد أن كسرت كاحلها. وبقي كاحلها ضعيفاً وسبَّب لها مشاكل كثيرة على الدوام بعد الحادثة.

والقيم التي يراها الأطفال أو يتعلمونها لا تدوم إذا لم يكن لهذه الأنماط والقيم مكانٌ في الثقافة الأوسع والأكثر شمولاً.

لم تعد لرسومات الأطفال الآن أية قيمة عند ميد وهي التي كانت ذات قيمة كبيرة في بحثها عن مانوس. ففي الثقافات التي عملت على دراستها لاحقاً، كان الأطفال ينسخون ما يفعله الكبار عوضاً عن التعبير عن نظرتهم للعالم على الورق. كانت الأشهر الستة التي قضتها مع فورتيون في بيري صعبة من نواح عدة. فلم تكن ميد قد تعلمت السباحة أبداً، لذلك كانت الحياة فوق الماء والصعود والنزول من الزورق عملا غير سهل بالنسبة لها. وكان سكان مانوس يرقبونها باهتمام كلما نزلت من الزورق. وقد كسرت كاحلها ذات مرة واضطرت أن تتجول مستعينة بعكازين.

عانت باستمرار من الملاريا التي كان يصاحبها قشعريرة دورية وحرارة مرتفعة يرقان ووهن، لكنها حازت على قلوب الناس في مانوس. عندما غادرت هي وفورتيون بيري، دقّت الطبول أغنية الرحيل التي يعزفونها عادة للموتى بينما كان الزورق يبتعد لأن سكان القرية ظنوا أنهم لن يروا ميد ثانية. إلا أن ميد ستعود إلى القرية خمس مرات أخرى على مدى الخمسين عاماً التي تلت.

بينما كانت ميد لا تزال في مانوس، علمت أن كتابها «سن الرشد في ساموا» قد أصبح الكتاب الأكثر مبيعاً في الولايات المتحدة. وعندما وصلت إلى وطنها، وجدت نفسها قد أصبحت كاتبة مشهورة. كانت مجلات مشهورة في الولايات المتحدة مثل مجلة «الوطن» و«عطارد الأمريكي» قد كتبت مقالات نقدية عن كتاب ميد. كما أثنى عليه بشدة عالم النفس هافيلوك إليس، وعالم الإنسان برانسلاف مالينوسكي، كما كان عامة الناس يشترون آلاف النسخ منه. بعض أصدقاء ميد من علماء الإنسان انتقدوا كتابها، من بينهم إدوارد سابير الذي انتقد ساخراً ولكن سرياً من النبرة الرومانسية في قول ميد «تمايل الريح على أشجار النخيل» وأصرّ على أن النظام لم يكن يمارس بشكل عادي. فقد رأى أن كل مجتمع قد نظم هذه العملية بطريقة أو أخرى، كما أخذ عليها علماء إنسان آخرون تقليلها من أهمية الصراع داخل المجتمع الساموي، وتجاهلها كفاحهم من أجل الاستقلال عن الولايات المتحدة الأمريكية والذي كان دائراً بينما كانت

ميد في ساموا. ردّت ميد على ذلك أنها كانت تنظر إلى المجتمع الساموي من وجهة نظر الفتيات الصغيرات اللواتي لم يكن لهنّ اهتمام في هذه المسائل. وقد كان رأيها أنه من الواضح أن المجتمع يبدو مختلفاً من وجهات نظر مختلفة. فهو يصلح لدراسة تجارب الفتيات الصغيرات ولدراسة ما يفكر أو يفعله القادة السياسيون في الوقت نفسه.

إذا ما عدنا إلى نيويورك خريف عام 1929، سنجد أن ميد قد عادت لتزاول عملها في المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي، واستأنفت حياتها كشخصية مشهورة. وقد رحبت الصحافة بها باهتمام، فقد وصفتها نيويورك تايمز بالمرأة المستكشفة في غينيا الجديدة. وقد كتب عنها في مقالة أنها «شقت طريقها لتدخل في أعماق فهم الشعب الميلاني وأصبحت الابنة المتبناة وأميرة للساموين». وبدأت في إعطاء محاضرات عامة وحوارات مرتين إلى ثلاثة مرات أسبوعياً، وهو ما ستفعله في بقية حياتها. أصبحت متحدثة بارعة، وقادرة على إدماج الحضور معها، مستمعةً جيدةً لأسئلتهم، ومشاركة أحياناً في نقاشات حادة. عرفت ما يجذب انتباه العامة فقدمت محاضرات عن مواضيع بعناوين براقة مثل «الحياة الخاصة لآكلي لحوم البشر» و«بينما تصطاد المرأة ويلبس الرجال الدمى». وبذلك أصبحت مركز اهتمام عامة الشعب ونادراً ما غابت عنه في الخمسين سنة التي تلت.

أصبح فورتيون عضواً في جامعة كولومبيا، وأنهى

خلال ذلك كتابه «سحرة دوبو» الذي كان قد بدأ كتابته قبل زواجه من ميد. كتب كتاباً آخر مبنياً على عمله الميداني الأخير في مانوس بعنوان «المجتمع المانوسي»، بينما كتبت ميد كتاباً عن الأطفال في مانوس بعنوان «النمو في غينيا الجديدة»، وعملاً آخراً أكثر تقنية عن القرابة في جزر الأدميرالية. كتبت ميد إلى الآن كتباً عن المجتمعين اللذين قامت بدراستهما في رحلتين ميدانيتين، وهي لم تكن قد بلغت بعد الثلاثين من عمرها.

في صيف 1930، غيَّرت من اهتماماتها بشكل مؤقت لتتوجه من البحار الجنوبية إلى قبيلة الأمريكيين الأصليين. طلبت من بواز أن تذهب مع فورتيون إلى الجنوب الغربي لتدرس النافاجوس. لم يوافق بواز على ذلك لأن اثنين من طلابه هما جلاديس ريتشارد وبليني إيرل جودارد، يقومان بدراسة النافاجوس. فبما أنهم كانوا من تخصص هؤلاء العالمين في هذا الوقت فإنه من غير اللائق إهدار المصادر في التدخل في منطقة تتبع لعلماء إنسان آخرين.

بعد ذلك استدعى رئيس القسم في المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي ميد ليقول لها أن ثمة امرأة غنية قد تبرعت بمنحة صغيرة لدراسة الحياة المتقلبة للمرأة الهندية الأمريكية فهل كان بإمكان ميد أن تمضي الصيف في دراسة كهذه؟ وجدت كذلك أن رث بندكت مهتمة بدراسة المجتمعات الهندية البسيطة وخاصة «الباحث عن الرؤيا» التي تعني ذهاب شاب وحده بضعة أيام ليبحث عن رؤية حيوان ليصبح رمزه الوحيد. عرضت رث بندكت عليهم

أن تمول رحلة فورتيون لدراسة هذه الظاهرة عند هنود الأوماها.

وهكذا ذهب فورتيون وميد بوجود هاتين المنحتين إلى محمية هنود الأوماها في نبراسكا. للأسف كان هذا العمل الميداني الأكثر إحباطاً في حياة ميد العملية. فنبراسكا في الصيف حارة وجافة، وفي تلك السنة لم تسقط الأمطار لمدة ستة أسابيع. وكان الأوماهيون متشائمين ومكتئبين ولم يكونوا يذكرون عن ثقافتهم التقليدية إلا القليل. وحتى ما كانوا يتذكرونه لم يشاؤوا أن يخبروا أحدا به، وذلك لاعتقادهم أن الموت يلحق بمن يفشي الأسرار عن الأشياء الغيبية. وبالمقارنة مع الإثارة التي كانت تغمر عملها وسط الثقافة الحية في جنوب المحيط الهادئ، فقد أحبطت ميد عندما أدركت متأخرة؛ أنها كانت تستطيع أن تعرف أكثر عن ثقافة أوماها التقليدية لو أمضت الصيف في المكتبة تقرأ التقارير القديمة. على الرغم من ذلك بذلت مع فورتيون كل ما بوسعهما فذهبا من منزل إلى منزل لتسجيل مشاعر اليأس والانهيار. بعد هذا العمل الصيفي في نبراسكا، أصدر فورتيون كتابه «مجتمعات أوماها السرية» وكتبت ميد «الثقافة المتغيرة لقبيلة هندية» وهو كتابها الوحيد عن الشعب الهندي الأمريكي وفي كتابها، لم تسمّ ميد الناس الذين درستهم بل أطلقت عليهم اسم «قرون الوعل».